مجلة الرائد

العدد : ٢٣٩ الموافق في رمضان ١٤٢٣ هجري ٢٠٠٢/١١ ميلادي

عنوان المقال : وقفات مع منهج تزكية النفس بالإسلام (٤/٣)	الكاتب : أ. متولي موسى

تناولت في المقالة الأولى مقدمة قصيرة بين يدي الموضوع ، حَدَّدت فيها معنى التزكية المطلوبة ؛ بأنها تطهير النفس البشرية بالإيمان باللَّه تعالى ، ولا يتحقق ذلك إلا بتحقيق العبودية لله عزَّ وجلَّ .

وتناولت في المقالة الثانية اتخاذ الأسباب لتحقيق سلامة القلب ، باستحضار خشية اللَّه تعالى في السر والعلن ، والصدق مع اللَّه تعالى ومع البشر ، والوصول إلى ثبات القلب على الدين الإسلامي .

رابعاً : الارتقاء بالسلوك إلى درجة اطمئنان النفس

نظراً لأن وسائل الاتصال لها آثارها في النفس والقلب ، فلا بد من أن يعيش الإنسان في بيئة ثقافية واجتماعية إسلامية ، وأن يكون لديه مقياس التقوى الذي يمكنه بأن يأخذ من الأفكار والعادات السلوكية كل ما يُرْضِي اللَّه تعالى ، وأن يبتعد في ثقافته وأخلاقه عن كل ما يغضب اللَّه عزَّ وجلَّ ، وأن يبتعد في سلوكه عن كل ما يشيع الخمول والكسل وعدم الجدية ، وسوف أتعرض إلى مناقشة بعض المؤثرات والتعامل معها على النحو الآتي :

① البيئة الثقافية

أقصد بالبيئة الثقافية كل وسيلة من شأنها التأثير العقلي والفكري على الإنسان من وسائل تعليمية أو من خلال قراءات الإنسان أو الاستماع من مذياع ورائي – تلفزيون وفيديو وشبكة الانترنت – وكذلك الأسرة والأصدقاء ، فكل هذه المؤسسات والوسائل تؤثر على عقله وثقافته بالخير والشر ، والإنسان قابل لكل ذلك مصداق قول الخالق ﷻ : { **إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ** ... } [الأنعام : ٣٦] . فإذا كان الإنسان ممن أدرك غاية وجوده وسعى إلى تحقيقها عبودية خالصة لله تعالى ، فإنه سيتعامل مع هذه المؤسسات والوسائل بمقياس الشرع ، فيأخذ ما صفى ويدع ما كدر ، ويمكن لكل

مجلة الرائد

العدد : ٢٣٩ الموافق في رمضان ١٤٢٣ هجري ٢٠٠٢/١١ ميلادي

عنوان المقال : وقفات مع منهج تزكية النفس بالإسلام (٣/٤)	الكاتب : أ. متولي موسى

صاحب عقل أن يتدبر إجابة أهل النار عن سؤال خزنة جهنم لهم : { ... **كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۞ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ** } [الملك : ٨-٩] وفي هذا الوقت بالذات يدرك الإنسان لمن استجاب! وكيف كانت استجابته ؟ فيقول مع القائلين : { **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۞ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ** } [الملك : ١٠-١١] .

وهنا لا بد لنا من إدراك التطور التقني وازدياد وسائل الاتصال والبث المباشر التي تتزايد يومياً ببث كل ما يؤثر على وسائل الإدراك ، ومنها ما ينحرف بالإنسان حتى ينحط في سلوكه إن استجاب لسمومها وتزيينها ، فيصبح أحط من الحيوان الذي لا يعقل . ويمكن تلخيص الآثار السيئة لهذه الوسائل إذا لم يوجد التوجيه السديد والترشيد الفاعل في حياة الإنسان – والموافق لكل عمر من الأعمار – وذلك على النحو الآتي :

أ– تشكيك المسلم في عقيدته وخاصة الإيمان باليوم الآخر ؛ مما يجعل المسلم في حالة حيرة واضطراب واستسلام للشهوة واللذة والمتعة المحرمة .

ب– إضعاف عقيدة الولاء والبراء ؛ إذ أن هذه الوسائل تسعى إلى تحقيق العولمة والخضوع للقوة المسيطرة والموجهة ، وهي في هذه الأيام قوة الشرّ والكفر ، وتحفيز الإنسان للارتباط بالمشاهير وتقليدهم سواء كانوا من لاعبي الكرة أو من الممثلين والمغنيين ، وكل ذلك يصرف المسلم عن عقيدتة وخاصة في مجال الحب والبغض والولاء والبراء . وقد حدد الخالق ﷻ هذه الحقيقة في قوله : { **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ... } [المجادلة:٢٢] وقوله عزَّ وجلَّ : { **وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** }

ج– الانصراف عن العلم النافع والعمل الصالح ؛ فالإنسان الذي ينشغل بهذه الوسائل سينصرف عن تحصيل العلم

النافع والذي يؤثر على سلوكه وعمله ، واللّه تعالى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى هو الذي يقول : { **وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** } [سورة العصر] .

د- شيوع الروح السلبية في حياة الإنسان ؛ إذ أن السهر مع وسائل البث المباشر يُنْسي الإنسان قيمة الوقت ، ويُضعف من عملية تقسيمه للاستفادة منه لما ينفع في الدنيا والآخرة .

هـ- الإضطرابات النفسية وانتشار الرذيلة وازدياد الجرائم ؛ لقد صدرت الدراسات الكثيرة عن منظمة « اليونسكو » وغيرها ، والتي أرشدت إلى مصاحبة الآثار السلبية في حياة الأفراد والمجتمع بسبب ازدياد وسائل البث المباشر وما تقدمه من أفلام الجريمة ومسلسلات العلاقات الجنسية وغيرها .

② البيئة الاجتماعية والأخلاقية

خلق اللّه تعالى الإنسان اجتماعياً ، وجعل الأخلاق انعكاساً لما انطوت عليه النفس من إيمان واعتقاد ، ولقد كان الخُلق حتى وقت قريب مما تهتم به الأمم والشعوب ، حتى قال الشاعر :

وإنمـــا الأمم الأخـــلاق ما بقيـــــت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

بل إن التعبير بالأخلاق له دلالته ، إذ أن إطلاق اللفظ ينصرف إلى الأخلاق الحسنة الطيبة ، فإذا أراد الإنسان التعبير عن النقيض قال : أخلاق فاسدة أو أخلاق سيئة .. إلخ .

وهنا لا بد من الإشارة إلى ما أحدثه التطور البعيد عن منهج اللّه تعالى ، إذ أن الإحصاءات التي تنشر تبين أن الأخلاق في طريق الانحطاط والخلل بسبب ازدياد وسائل الغواية والتضليل عن منهج الحق ، وعلينا معشر المسلمين أينما كنا في بلاد المسلمين

أوبلاد الغرب – فقد أصبح العالم قرية صغيرة – أن ننتبه إلى أنفسنا أجيالنا المستقبلية ، وخاصة أن الغالب على وسائل الإعلام المتمكنة ما يأتي :

أ– العمل على تهييج الغرائز وتزيين السبل غير المشروعة لتصريفها ، ويكفي أن يقرأ الإنسان ما كتب ويكتب عن آثار المسلسلات والأفلام التي تختار نساء بمواصفات مثيرة ليقمن بالدور الرئيسي فيها .

ب– تشجيع كل ما يعمل على إثارة الغريزة بين الجنسين من خلوة واختلاط واختيار كلمات الأغنية .. إلخ .

ج– الدعاية لأمور تؤدي بالإنسان إلى الانحراف عن الفطرة السوية .

د– قديماً قالوا : '' الإنسان ابن بيئته '' وقالوا : '' من شبّ على شيء شاب عليه '' وقالوا : '' الصاحب ساحب '' وقالوا : '' المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل '' ، وهذه الأمثال التي هي خلاصة تجارب الشعوب وغيرها ، تدل على الأثر الاجتماعي ، وقد أرشدت منظمة '' اليونسكو '' إلى ذلك في دراسة جاء فيها : « إن إدخال وسائل إعلام جديدة وخاصة التلفزيون في المجتمعات التقليدية أدى إلى زعزعة عادات ترجع إلى مئات السنين وممارسات حضارية كرسها الزمن » إذا كان هذا الكلام مجرداً وعاماً ، فإذا أنزلناه على المسلمين بصفة خاصة وجدنا أن الآثار الناجمة هي إبعاد المسلمين عن أخلاقهم التي تميزهم بدينهم ، ولنتذكر أن اللّه تعالى حين أثنى على رسوله ﷺ قال : { **وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ** } [القلم : ٤] .

هـــ– ومن الآثار الاجتماعية الخطيرة والتي ربما تؤدي إلى تدمير المجتمعات ما دلت عليه الإحصاءات في المجتمعات العصرية ما يأتي :

– التأخر في الزواج ، وتفشي الطلاق ، وتحريم تعدد الزوجات مع السماح أو السكوت عن وجود الخليلات ، بل والسماح بزواج المثل وما سيترتب على ذلك من آثار في بلاد المسلمين وبين المسلمين في الغرب .

– ضعف القيام بحقوق الوالدين ، وقطع الأرحام ، وتفكك الأسرة وانهيار العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع بصفة عامة .

③ البيئة الاقتصادية والسياسية

كذلك لا يمكن إغفال آثار البيئة الاقتصادية والسياسية على التربية وخاصة في مجال السلوك والتعامل ، فإذا انحرفت الأحوال الاقتصادية والأوضاع السياسية عن منهج اللّه عزَّ وجلَّ ، ظهرت آثارها السيئة في سلوك وأخلاق أبناء المجتمع ، ولا يمكن في مقال محدود الإشارة إلى كل ذلك فضلاً عن أن الحصر للآثار الضارة الناتجة عن انحراف الأوضاع الاقتصادية والسياسية غير ممكن ، بل إن الحاجة ملحة وضرورية أن يقوم المربون والمؤسسات التربوية باتخاذ الأسباب لتزكية النفس المسلمة وتطهيرها من هذه الآثار الضارة ، ولكنني أشير إلى مقياس مهم جداً أرشد اللّه تعالى إليه في تحريم الخمر وهو إذا كانت النتائج المترتبة على أي أمر من الأمور حدوث أضرار أكبر من المنافع فيجب التوقف عن هذا الأمر وتأمل قول اللّه تعالى : { **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا** ... } [البقرة : ٢١٩] ، وقوله تعالى : { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** } [المائدة : ٩٠] . ولقد صاغ علماء أصول الفقه في هذا الشأن قواعد هامة منها : '' درء المفاسد مقدم على جلب المصالح '' و '' قاعدة سد الذرائع '' فقد نهى اللّه تعالى عن سبّ أصنام الكفار إذا كان سبها سيؤدي إلى سبّ اللّه ﷻ فقال : { **وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ** } [الأنعام : ١٠٨] .

الخلاصة

إذا وصل الإنسان المسلم إلى درجة الاطمئنان فإنه يصبح مراقباً لله تعالى في القول والعمل ؛ قال تعالى : { **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي** } [الفجر : ٢٧-٣٠] . حيث يتحرك المسلم على هدى من دينه وإلى ذلك يشير النبي ﷺ في قوله : « **إِنَّ الْحَلالَ بَيِّنٌ ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ** ... » جزء من حديث صحيح رواه البخاري ومسلم .

ولعل هذا السلوك هو الذي قال عنه الشاعر :

وإذا خلوت بريبة في ظلمة والنفس داعية إلى الطغيان

فاســـــتحي من نظر الإله وقل لها إن الذي خلق الظلام يراني

وعبر عنه آخر بقوله :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب

فلا تحسبن اللَّه يغفل ساعة ولا أن ما تُخْفي عليه يغيـــب

فالإنسان إذا بلغ درجة الاطمئنان كان من المحسنين الذين أخبر عنهم ﷺ في قوله إجابة على سؤال جبريل عليه السلام : ما

الإحسان ؟ قال : « ... **الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** »

– للكلام صلة –